فكر مالك بن نبي في منظور مفكري عصره

Malek Bennabi thought in the perspective of his contemporaries

لكحل فيصل أستاذ محاضر (أ) جامعة ابن خلدون تيارت، الجزائر

Lakehal.faissal@gmail.com

الملخص

إن هناك الكثير من المواقف التي اختلفت في تقييم الفكر الحضاري عند مالك بن نبي فمنها من بين أن فكره فكر مصلح اجتماعي مسلم يمتاز بقيمة علمية وعملية ع،ة يجب الإقتداء بها في كل عملية تغيير حضاري ينشده العالم الإسلامي في هذا العصر، ومنهم من بين بأن فكره الحضاري كغيره من النظريات قد وقع في بعض المزالق والعثرات المنهجية والمعرفية وبالت، لا يمكن عده مرجعية للتغيير الحضاري في العالم الإسلامي والهدف من هذه الورقة هو الكشف عن الخلفية المعرفية والنقدية لهاذين الموقفين وبيان مدى موضوعية الطرح الذي قدمه كل منهما.

الكلمات المفتاحية: الحضارة، الثقافة، العلم، التغيير، التاريخ.

Abstract :

There are many positions that differed in the evaluation of cultural thought by Malik bin Nabi. Some of them believe that his thought is a Muslim social reformer that has a high scientific and practical value that must be followed in every process of cultural change sought by the Islamic world in this age .And some of them see that the idea of civilization Like other theories have occurred in some methodological pitfalls and cognitive pitfalls, and therefore cannot be counted as a reference to cultural change in the Islamic world, and the purpose of this paper is to reveal the cognitive and monetary background of these two Attitudes And to indicate the extent of the objectivity of their respective proposition.

key words: Civilization, culture, science, change, history.

مقدمة

يندرج المشروع الفكري الحضاري عند مالك بن نبي ضمن سلسلة مؤلفات سماها بـ"مشكلات الحضارة"، ويمكن تصنيف هذه المؤلفات من الناحية الإجرائية والمنهجية إلى توجهين أساسيين: أولها أنها جاءت تشخيصية وانتقادية لحالة العالم الإسلامي آنذاك، وهذا ما يلاحظ في مواقف مالك بن نبي من "الظاهرة الاستعمارية" التي أفرد لها الكثير من التحليلات ومن النصوص في مؤلفاته المختلفة، إلى جانب نقده لمظاهر "التخلف والركود الحضاري" من خلال نقده لبعض السلوكيات العملية للفرد المسلم داخل المحيط الاجتماعي الذي يعيشه، أما التوجه الثاني لهذه المؤلفات فهو تحديدها لما ينبغي أن يكون عليه الوضع الحضاري الراهن في العالم وخاصة العالم الإسلامي، ومن مثل ذلك اقتراحه لفكرة "الكومينويلث الإسلامي" و"الوحدة الثقافية والسياسية في العالم الإسلامي" مقارنة بما وصلت،ه الحضارة الغربية في هذا العصر من تقدم ورقي علمي وحضاري.

والملاحظ هو أن بعض هذه المؤلفات كان بالفرنسية والبعض الأخر بالعربية، وقد كانت فترة ت،فها تمتد من أواخر الأربعينيات إلى بداية السبعينيات، والتي تتجاوز الثمانية عشر كتابا، ولقد ترجمت في الفترة الأخيرة تقريبا كل كتبه إلى العربية في ترجمات موثوقة كان قد أشرف هو نفسه على أغلبها لكن الشيء المهم في مؤلفات مالك بن نبي ليس هو عدد هذه المؤلفات ولا عدد الصفحات التي احتوتها، وإنما هو قيمة الأفكار التي تضمنتها وأهميتها العلمية والتاريخية فمقارنة بالكثير من المؤلفات التي كتبت في المجال التاريخي والحضاري، نجد أن مؤلفات مالك بن نبي تمتاز بالقيمة الكيفية والنوعية، من خلال تحليلات منسجمة تراعي خصوصية الحقبة التاريخية موضوع الاهتمام، كما أنها تمتاز بالتحليل الكمي المتنوع الذي تتداخل فيه الكثير من المعارف التاريخية المختلفة التي جعلت فكره يتسم بالعمق والشمولية.

لكن فكر مالك بن نبي قد لقي تأويلات مختلفة فمنهم من اعتبره رائد في مجال الفكر الحضاري من خلال جملة التحليلات والحلول التي قدمها من أجل النهوض بالعالم الإسلامي وإزالة حجب التخلف التي ظل يعاني منها، ومنهم من اعتبر أن فكره لا يعدو أن يكون مجرد

قراءة للوضع الحضاري الذي يواجهه العالم الإسلامي آنذاك، ومن ثم فإن الحلول التي قدمها لهذه المشكلات كانت حلولا تاريخية ظرفية لا تعدو أن تتجاوز طبيعة المرحلة التاريخية التي راهنها. فهل يعد المشروع الفكري الحضاري الذي قدمه مالك بن نبي مدخلا مشروعا للخروج من أزمة التخلف والتبعية التي يعاني منها العالم الإسلامي؟ أم أنه لا يعدو أن يكون سوى مجرد تشخيص وصفي لا يتجاوز المرحلة التاريخية التي عاصرها؟

1- مشكلة تصنيف فكر مالك بن نبي:

يفترض أحد الباحثين المتخصصين في فكر مالك بن نبي وهو عبد اللطيف عبادة بأنه ينتمي إلى الحركة السلفية الحديثة التي أسسها في العالم الإسلامي بعد محمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغاني، وهو يستند على ذلك في أن "مالك بن نبي تتلمذ على يد أحد أهم حاملي لواء هذه الحركة وهو المولود بن الموهوب مفتي قسنطينة، الذي اطلع من خلاله على الفكر السلفي الحديث من خلال مجلة "العروة الوثقى" و"المنار" و"رسالة التوحيد"، كما عاصر مالك بن نبي الحركة الإصلاحية وتعاطف معها ومع رائدها عبد الحميد بن باديس، بغض النظر على الخلافات الهامشية مع روادها" (عبد اللطيف عبادة، 2006، ص3-4)، بيد أن ما يتميز به الفكر الحضاري عند مالك بن نبي دون غيره من النظريات الإصلاحية النهضوية التي عاصرها كما خلصت إلى ذلك الباحثة نورة خالد السعد هو أن "تصوراته حول التغيير الاجتماعي ترتقي إلى مستوى النظرية الاجتماعية العامة، كونه لم يقف عند مستوى تفسير الواقع الاجتماعي واستعراض قوانينه، بل قدم اتجاها اجتماعيا جديدا يتناول فيه حركة المجتمع في نطاق الحضارة، وما يتبعها من مبادئ للتغيير الثقافي والحضاري، ومن هنا خلصت الباحثة إلى أنه بالإمكان صياغة فروض محددة من هذه النظريات تصلح لاستئناف دراسات نفسية واجتماعية وحضارية جديدة" (نورة خالد السعد، 1998، ص281) .

أما في نظر الباحث عبد القادر بوعرفة فإن "مالك بن نبي يتميز بنزعة إنسانية عالمية رفعته إلى مصاف الإنسانية من ذلك أنه يستعمل مصطلح الأخرL'autre في حديثه عن الغربي الأوروبي، حيث تدل هذه الإزاحة المفهومية على احترام الخصم رغم كونه يمثل الجانب الشرير

في حياته وثقافته في كثير من المواقف وخاصة إذا تعلق الأمر بالصراع الفكري وصانعيه" (بوعرفة عبد القادر، 2006، ص29)، وبالت، فإن الفكر الحضاري عند مالك بن نبي ليس مجرد تنظير للقيم والمبادئ الحضارية وفقط، وإنما هو مشروع متكامل ذي أهداف ومقاصد إنسانية، ذلك أنه لم يسفه الحضارة الغربية بالمطلقية والشمول، وإنما حاول في الكثير من الأحيان أن يبين كيف ساهمت في توجيه القيم والأخلاق الإنسانية نحو الفعالية الحضارية. لكن هذا لا يعني معه بأن النهوض الحضاري الذي يدعو،ه يغلب عليه البعد التمدني، بل هو تغيير جذري شامل يراعي أهمية القيم والمبادئ التراثية لاسيما وأنه يؤلف بين مصدرين أساسيين في دراسته التاريخية للحضارات واقتراحه للحول اللازمة من أجل النهوض بها، وهما الأصالة الإسلامية والفعالية الغربية، إذ بالرغم من أن مالك بن نبي تأثر بالحضارة الغربية التي عاش فيها إلا أنه لم يغترب أو يذوب فيها، بل أنه في الكثير من الأحيان وقف على أخطائها في المجال العالمي الإنساني.

ويفهم من هذا أن فكر مالك بن نبي حسب الباحث عمر بن عيسى فكر مستقبلي، لأنه أبعد من أن يكون مجرد تفسير ولى زمانه، لقد أيقض الأفكار لتوظف في رسالة في مستوى المسلمين الأول ويظهر هذا جليا من خلال محاولة مالك بن نبي عصرنة الإسلام بفكر حضاري واعي بمتطلبات الراهن الحضاري، يقول عمر بن عيسى "إن الفكرة البنابية تبدوا لنا أكثر من أي يوم مضى معاصرة ترسم سبيل خروج العالم كله من أزمته، فبن نبي هو أول من استعمل العالموية Mondialisme" (Omar Benaissa , 2008, p57)، لأن فكره ذو طبيعة عالمية، فلو عدلنا تعبير ماكلوهان عن القرية العالمية global village لوجدنا أن دعوة مالك بن نبي تصب في الاتجاه نفسه، ولكن على أساس قداسة الوجود وكما يرى الباحث عبد الرحمان عزي أن "هذا المفهوم يختلف عن ما يسمى بالعولمة ح،ا والقائمة بشكل أو بأخر على مركزية الحضارة الغربية، لأن العالمية التي يدو،ها مالك بن نبي عالمية حضارية، أو أنها دعوة تخص القرية العالمية القيمية، فالإسلام لا يعني المسلمين وحدهم" (عبد الرحمن عزي، 2010، ص19). وذلك من خلال دعوته إلى الرسالة الإنسانية التي تتمثل في تغيير كل من العالمين الغربي

والإسلامي لأوضاعهما الراهنة من أجل التقارب الحضاري، وذلك بأن يتخلى العالم الغربي عن أطماعه الإيديولوجية وسيطرته الحضارية، وأن يتجاوز العالم الإسلامي كبوته الحضارية بما تبقي لديه من عالمه الثقافي الأصيل، وهذا يقتضي أن يقدم العالم الإسلامي للغرب الجانب الروحي المتمثل في القيم والمبادئ الإسلامية، ولذلك قدم مالك بن نبي دعائم مشروع حضاري بأكمله يستند على المبادئ الإسلامية الأولى التي تم بها بروز الحضارة الإسلامية إلى العالم، ولكن هذا ليس من خلال العمل على التقليد والإتباع السطحي الساذج للماضي التراثي، وإنما يجب أن تكون أطراف المعادلة الحضارية التي يجب أن يستعيدها العالم الإسلامي المعاصر متكافئة مع المتطلبات الإنسانية التي يحتاجها الإنسان المسلم، أي لا بد من مراعاة شرطين أساسيين أولهما استعادة روح مبادئ التغيير من الدين الإسلامي، وثانيهما ضمان تفعيل هذه المبادئ في الواقع النفسي والاجتماعي.

2- فكر مالك بن نبي بين المؤيدين والمعارضين:

على الرغم من القيمة العلمية والمنهجية التي حضي بها فكر مالك بن نبي ومشروعه الحضاري عند الكثير من الباحثين والمفكرين، إلا أن هناك من المفكرين من رأى أن مشروعه الحضاري مجرد تحليل وتشخيص فقط، وأن أفكاره لا ترقى إلى مستوى تغيير أوضاع العالم الإسلامي تغييرا جذريا، كما أن فكر مالك بن نبي لقي حصارا شديدا من أطراف عدة دينية وسياسية وغيرها، وكما يرى الباحث الطيب برغوث أن "الثقافة التجزيئية في التعامل مع الوحي والواقع والتراث والمستقبل همشت هذه الأفكار الجنينية الهامة وحرمتها من النمو واستكمال نضجها وإفادة الأمة بها، في وقت هي أشد ما تكون احتياجا،ها، وبهذا وقع لفكر مالك بن نبي ما وقع لابن خلدون قبله عندما لفه ليل التخلف الحضاري ولم تكن ظروف الأمة لتساعده على النمو والتبلور والنضج والتمثل في واقع الأمة" (برغوث الطيب، 2004، ص13) فقد تم التحامل على فكره ورفضه وفي بعض الأحيان تسفيهه من دون العمل على مناقشته أو تصويبه، وفي أحيان أخرى الحكم عليه بالسطحية والسهولة دون فهم مقاصده الحقيقية فهل فهمنا فكر مالك بن نبي حقا؟

يستعرض الباحث عبد اللطيف عبادة في هذا الصدد عدة أسباب حالت دون فهمنا لفكر مالك بن نبي من بينها "تحامل بعض السياسيين على فكره، وحكم بعض الحركات الإسلامية على فكره بالاشتراكية ونفوذ بذور الإيديولوجيات المعاصرة في تكوينه" (عبد اللطيف عبادة، 2006، ص39)، ولعل تحامل السياسيين على فكره يعود ولاشك إلى نقده لبعض زعماء الإصلاح السياسي في الجزائري، الذين انتهجوا في نظره إصلاحات سياسية لا تتلاءم مع التطلعات السياسية الواجبة آنذاك، إذ "كانت أفكاره جزاء من الخلافات الاجتماعية والسياسية الحاصلة في الجزائر والعالم العربي والإسلامي التي عاشت هذه الهواجس، بل أن وفاته كانت ربما جزاء من هذه المأساة (مسقاوي كامل، 2003، ص94)، والمتتبع لأفكار مالك بن نبي آنذاك يلاحظ بوضوح نقده لتلك السياسات الفاشلة في العالم الإسلامي، من خلال بيان مواطن ضعفها وجوانب النقص فيها وأهم فكرة ركز عليها هي أن مفهوم السياسة الحقيقية يختلف عن البوليتيك الذي اتبعته جل بلدان العالم الإسلامي آنذاك، لأن "البوليتيك تقتضي الديماغوجية وتسلك مسلك المطالبة بالحقوق على حساب أداء الواجبات في حين أن السياسة الحقيقية ترتبط بالأخلاق ارتباط وثيقا وتسلك مسلك أداء الواجبات من أجل الصالح العام ولو تعطل لأسباب قاهرة دفع الحقوق" (عبد اللطيف عبادة، 1984، ص109)، بمعنى أن السياسة التي لا هم لها سوى إرضاء حماس الجماهير وتغليب الكم عن الكيف، والإيمان بالكريزمات الوهمية والمخلص السياسي كلها إنما تمثل تجلي خاطئ للمسار السياسي في العالم الإسلامي، لأن السياسة القويمة هي التي تأخذ بالمبادئ الأخلاقية وتعمل على تأسيس منظومة ثقافية قادرة على تغيير أوضاع شعوبها من خلال تنظيم الحياة العامة تنظيما ثقافيا أخلاقيا لكن الذي ساهم ربما في مآل العالم الإسلامي إلى هذا الحال هو افتقاده لفكرة التوجيه السليم من ناحية الفكر والثقافة، وليس من ناحية العقيدة والدين.

ويفهم الآن أن الوضع الحضاري الذي عاصره مالك بن نبي كان يتميز ببروز حركات الإصلاح والنهضة التي اتخذت من المرجعية التراثية الدينية أساسا في إعادة البعث الحضاري ومن المعلوم أن فكر مالك بن نبي كان في تلك الفترة متشبعا بالأفكار الغربية التي دفعته إلى نقد

الواقع الإسلامي آنذاك، ولكن ليس من خلال الدعوة الدينية التي تحث على تمثل أوامر ونواهي الإسلام والالتزام بالعبادة وفقط، ولكن عن طريق الفكر النقدي الفَّعال، لأن ما كان ينقص المسلم في ذلك الوضع ليس هو أن نُذَكرَه بتع،م الدين ولا أن نحثه على القيام بواجباته اتجاهه، كما أن العالم الإسلامي والى غاية تلك الفترة لم يتخلى عن الإسلام، ولكنه جرده من فع،ته الاجتماعية وجعل منه مجرد شهادة في عالم الأنفس تخلو من الفعالية والنشاط الاجتماعي، وبالت، رأى مالك بن نبي أن رأس الأمر هو إعادة تفعيل قيم الإسلام في الحياة النفسية والاجتماعية للإنسان المسلم، ولكن كما يقول الباحث عبد اللطيف عبادة "إنَّ مالك بن نبي في فهمه وتمثله للثقافة الإسلامية في أبعادها الإنسانية والعالمية لم يحظى لا برضا مثقفي التيار الوطني ولا برضا مثقفي التيار الإصلاحي آنذاك، فبقي فكره محاصرا أو على هامش الفعل السياسي" (عبد اللطيف عبادة، 2006، ص16).

إن أفكار مالك بن نبي في قضية التغيير الحضاري لم يشهد لها محاولة تطبيق جادة في المجتمع الجزائري في مرحلة ما بعد الاستعمار ولعل هذا الأمر ناتج من نواتج سيطرة السياسة على الفكر وطغيان قيم السياسي على قيم الثقافي.

ويفهم من هذا أن التحامل على فكر مالك بن نبي من الناحية السياسية أو الاجتماعية العامة أي نقد وتسفيه فكره من خارج هذا الفكر بأس،ب سياسية أو إيديولوجية معينة، أمر يحتاج إلى إعادة نظر، لأن هذه الأحكام والآراء لم تستطع أن تنقد أو تناقش فكر مالك بن نبي من الداخل ونقصد بالذكر طرحه ومعالجته لمشاكل العالم الإسلامي والعالم الثالث على وجه العموم وقراءته للحضارة الغربية ونتيجة لذلك راحت تسعى إلى إيجاد المبررات الخارجية وتتحين الطرق والأس،ب الهدامة التي تفترض دون أن تعمل على فهم طبيعة هذا الفكر في بعده النسقي المتكامل.

لكن إلى جانب النقد البرّاني الخارجي، سعى الكثير من المفكرين المعاصرين إلى محاولة نقد فكر مالك بن نبي من جوانبه الجوانية الداخلية، ولكننا وجدنا من خلال فهمنا لها ولأغراضها أن أغلبها لم تفهم فكر مالك بن نبي كما ينبغي وخاصة في قضية التغيير الحضاري والمبادئ

المغيرة لمسار التاريخ والحضارة، كما أن البعض الأخر من هذه المواقف النقدية كان يتبع مسارا إيديولوجيا غير مؤسس بطريقة منهجية واضحة، ليس هذا لأن فكر مالك بن نبي أو مشروعه الحضاري يخلو من النقد ولكن لأن النقد الذي اتبعه الأغلب من الكتاب والباحثين، بل وحتى الذين سعوا منهم إلى بناء مشروع فكري معين كان يعبر في الأخير عن مجرد وجهات نظر خاصة ومواقف ذاتية لا غير.

فهل يكفي القول بعدم استمرارية وراهنية المشروع الحضاري عند مالك بن نبي القول أن المعادلة الحضارية لم تكن كافية ومستغرقة للمتغيرات المستقبلية التي حلت بالعالم الإسلامي بعد مالك بن نبي؟ نجد من بين الباحثين المهتمين بفكر مالك بن نبي أمثال عبد الرحمن عزي يرى أن مالك بن نبي تكلم عن المعادلة الحضارية في عموم وجودها في العالم الإسلامي، ولكنه لم يكن على وعي تام بما يتطلب هذه المعادلة من إضافات جديدة تفرضها طبيعة المتغيرات التي حلت بالعالم الإسلامي بعده، يقول عبد الرحمان عزي "وحسبي فلو أن بن نبي عاش فترة انتشار الإعلام وتكنولوجيا الاتصال بعد السبعينيات لأضاف عنصر الإعلام إلى المعادلة المذكورة (...) فإنه يمكن إضافة عناصر إضافية إلى تلك المعادلة مثل المعرفة والقوة العسكرية، أي إنسان، تراب، زمن، إعلام، معرفة، قوة عسكرية" (عبد الرحمن عزي، 2010، ص12).

ولكن هذا الانتقاد لا ينبغي أن ينقص من قيمة وأهمية المعادلة الحضارية التي بينها مالك بن نبي، ليس هذا لأن هذه المعادلة مطلقة تخلو تماما من النقد ولكن لأن مالك بن نبي قد حددها بشكل شامل يستوفي جميع العناصر التي يمكن إضافتها،ها، فمثلا عندما نقول أن أهم عنصر في هذه المعادلة هو الإنسان فلا يلزم بعدها القول أنه يمكن إضافة الإرادة أو الوعي أو الحرية لعناصر المعادلة بحيث تصبح إنسان+ إرادة أو وعي أو حرية+ التراب+ الزمن= حضارة لأن هذه العناصر التي يمكن إضافتها تدخل في تقديرنا أو مفهومنا عن الإنسان وعن نشاطه الحضاري وبالت، نجد أن تأكيد الباحث عبد الرحمان عزي على إضافة عناصر أخرى للمعادلة الحضارية يغلب الإيديولوجية الإعلامية على المعادلة الحضارية، ويجعل منها مدخلا لنقدها، وبالنسبة لنا فإن تحديد مالك بن نبي للمعادلة الحضارية تحديدا كليا شاملا كان

يصب في إطار وعيه بالمتغيرات التي ستحل بالعالم الإسلامي بعده، وليس كما اعتقد الباحث عبد الرحمان عزي أنها تصب في إطار عدم الوعي بالمتغيرات الحضارية التي ستحل بالعالم الإسلامي.

بالإضافة إلى هذا نجد أن فكر مالك بن نبي قد تعرض إلى تجاهل واضح من طرف الكثير من المفكرين المعاصرين بحجة أن فكره غير مفهوم كما حصل ذلك مع صدور مؤلفه "شروط النهضة" الذي صدر بالفرنسية، وكذا مؤلف "الظاهرة القرآنية"، وفي هذا يقول محمد أركون ناقدا لفكر مالك بن نبي "نلاحظ منذ القرن التاسع عشر أن المسلمين المتخصصين في العلوم الدقيقة يتدخلون بسهولة في الدراسات القرآنية ويكتبون عنها كتبا تحظى بنجاح كبير في المكتبات، فمثلا كان المهندس الجزائري مالك بن نبي قد فرض نفسه في النصف الأول من القرن العشرين بصفته مفكرا مسلما كبيرا عن طريق إصدار كتاب سطحي جدا يدعى الظاهرة القرآنية، وهو كتاب لا يزال يقرأ بشكل واسع ويعلق عليه حتى الآن" (محمد أركون، 2005، ص14-15) .

لكن المتتبع للمشروع الفكري عند محمد أركون يجد أنه أكثر غموضا وإبهاما من فكر مالك بن نبي ذاته، فمؤلفات محمد أركون تشعرنا في الكثير من الأحيان من شدة تعقدها أنها لا تملك ذلك التأثير الذي فرضته مؤلفات مالك بن نبي لأن عقد مقارنة بسيطة بين مؤلف "الظاهرة القرآنية" لمالك بن نبي ومؤلف "القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني" لمحمد أركون، يبين أن فكر مالك بن نبي أقرب إلى التأثير في الواقع النفسي والاجتماعي للإنسان العربي والمسلم، من حيث شحذ الفعالية والقدرة على التغيير الحضاري، فما الفائدة من الكتابة في موضوعات تخص المجال الثقافي والحضاري في العالم العربي والإسلامي، يقول رومان رولان "لا يكفي أن تبدع أفكارا، يجب أن تؤمن لها الحياة وهنا تكمن المسألة كلها" (مالك بن نبي، 2008، ص42)، لا يمكن أبدا إنكار قدرة أفكار مالك بن نبي على دفع عجلة التقدم الحضاري في العالم العربي والإسلامي ولو على مستوى تشحيذ فع،ة التغيير النفسي وتحديد شروط النهوض الحضاري من جديد، وكما يقول الباحث أبو القاسم حاج حمد في

تقييمه لفكر مالك بن نبي "قد أعطانا مالك بن نبي مجموعة توترات نفسية وذهنية دافعة لليقظة الروحية ومنفتحة على العالم الجديد بكل سلبياته وايجابياته، ولم يحدد لنا منهجا للخروج من هذه التوترات (...) فمالك بن نبي قد أفاد من العلوم الغربية في التحليل والتفكيك ولكن لم يستطع التركيب" (أبو القاسم حمد، 2004، ص195).

ولكن أنَّ يمكن له التركيب إذا لم تُتح له الأوضاع التي عاصرها آنذاك فرصة لتطبيق مشروعه الحضاري، ولكن يكفي أن مالك بن نبي حدد معالم الطريق والبقية إنما تتوقف على الأجيال التي تأتي بعده، لأن قضية تطبيق فكر مالك بن نبي في الواقع الحضاري للعالم الإسلامي إنما هي مهمة أجيال، رُبَّ مهمة معاصرة ملقاة على عاتق القائمين على شؤون العالم الإسلامي المعاصر بعد.

وفضلا على الانتقادات السابقة التي وجهها بعض المفكرين للمشروع الحضاري عند مالك بن نبي يمكننا أن نذكر كذلك الانتقاد الغير موضوعي الذي وجهه الباحث عزيز المدرس، والذي أقر أن "جهود مالك بن نبي اقتصرت على مجال الكشف عن قوانين التغيير و،اته في بعد تجريدي نظري" (المدرس عزيز، 2005، ص55)، لكن الأمر عكس ذلك تماما، ففكر مالك بن نبي ركز على أهمية المبادئ من حيث فع،تها في المجال العملي، إذ لا فع،ة للمبادئ ما لم تتجسد واقعا سلوكيا عمليا من شأنه أن يغير نفسية الفرد وحالة المجتمع إلى الحركة في التاريخ وبالت، فإن جهود مالك بن نبي على العكس تماما مما يعتقد الباحث عزيز المدرس ليست بحاجة إلى وضع أسس جديدة لتفسير التاريخ وفق تصوراتنا ومرتكزاتنا الحضارية، لأن ما كان يتطلبه الواقع الحضاري الذي عايشه مالك بن نبي ليس هو وضع مبادئ وقوانين مطلقة، بقدر ما هو إيجاد التشخيص الأمثل لحالة الانحطاط الحضاري الذي انتهي،ه العالم الإسلامي ومن ثم إيجاد الحلول والمقترحات اللازمة لتجديد الوعي الحضاري، من خلال بث فع،ة المبادئ التي قامت عليها الحضارة الإسلامية في عهدها الأول في الواقع النفسي والاجتماعي للعالم الإسلامي آنذاك، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو إلى أي مدى كانت مبادئ التغيير الحضاري أمرا ناجزا في الواقع النفسي والاجتماعي للعالم الإسلامي آنذاك، وفق الوجهة الحضارية التي حددها

مالك بن نبي؟ ولكن ينبغي قبل الإجابة عن هذا السؤال التنبيه إلى قضية المبادئ وعلاقتها بالتغيير الحضاري، حيث قدم الكثير من المفكرين العرب والمسلمين المعاصرين اجتهادات خاصة في النظر إلى قضية المبادئ وعلاقتها بالتغيير الحضاري من خلال مقاربتهم للمشكلة الحضارية السائدة في العالم الإسلامي بالتساؤل عن ماذا نقصد عند حديثنا عن المبادئ؟ هل نقصد بها الثوابت التي لا تتغير؟ أم أننا نقصد ما هو قابل للتغير والتحول؟ وهل المبادئ المغيرة هي ذاتها قابلة للتغير أم لا؟

يبدو أنه مهما حاولنا الإجابة عن هذه الأسئلة فإننا لن نصل في الأخير سوى إلى القول بأن المبادئ المغيرة ليست شيئا أخر سوى الأفكار، ولكن ليست ما اتفق من الأفكار التي ينتجها الفكر الإنساني، وإنما هي تلك الأفكار التي تتميز بشروط وخصائص معينة أي الأفكار الفعالة التي تعتبر بمثابة مبادئ يمكنها أن تتحول إلى واقع، أو التي لها انعكاس معين على الواقع النفسي والاجتماعي للإنسان، وهذا الوصف يصدق ولاشك على الفكرة المبدأ، أي الفكرة المغيرة، بمعنى الفكرة التي تملك أن تنقل الإنسان من حال الخمول والركود النفسي والاجتماعي إلى حال الفعالية الحضارية، ولكن هذا لا يعني بأن الأفكار/ المبادئ حينما يتم تجسيدها في واقع اجتماعي تنحل وتتغير هي بدورها، لأن هناك أصولا ومبادئ ثابتة لا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة، ومثال ذلك الفكرة الدينية الإسلامية التي لها ثوابت ومرتكزات لا يمكن تغييرها كأمور العقيدة ووحدانية الله، أما ماعدا ذلك من الأفكار المتعلقة بالحياة الإنسانية فهي من المتغيرات التي يمكن الاجتهاد فيها، وقريبا من هذا التصور نجد المفكر محمد عمارة يرى أن "نصوص الثابت/ المبدأ الذي اكتمل بتمام الوحي هي نصوص متناهية، بينما واقع الحياة ووقائعها رحم ولود بالجديد الذي لا يعرف التناهي ولا الحدود، وهنا يكون التجديد/ التغيير، في صورة الفروع التي تحمل روح الثابت وأصوله ومزاجه العقدي والحضاري" (محمد عمارة، 1995، ص21-22)، وبالت، فلا اختلاف أو تناقض بين القول أن المبادئ الإسلامية ثابتة من حيث جوهرها وأصلها ومتغيرة من حيث تطبيقها في الحياة الإنسانية، لأن اختلاف التطبيق وتغيره من زمن إلى أخر ومن شخص إلى أخر ومن وضعية حضارية إلى أخرى لا يغير في روح المبدأ، ولكن يجعل منه

أكثر فع،ة وملائمة لمقاصد الحياة الإنسانية التي حفظها الدين الإسلامي للإنسان في كل زمان ومكان، يقول المفكر محمد عابد الجابري "فالإسلام كما نقول دائما هو دين كل زمان ومكان وإذا لابد من أن تختلف الحضارة الإسلامية باختلاف العصور، نعم أن مبادئ الدين ثابتة لا تتغير، ولكن المبادئ هي دائما مجرد مبادئ ويبقى الاجتهاد بابا واسعا أمام الفكر والعمل ويقدم لنا عصر النبوة وعصر الخلفاء نماذج كثيرة ومتنوعة للاجتهاد في المبادئ" (عابد الجابري، 2005، ص187)، وهذا ما يبين أن هناك إلى جانب المبادئ الإسلامية الثابتة مبادئ حضارية أخرى يمكن أن يجتهد فيها الإنسان وأن يلتزم بها في بعض المواقف، ولكن هذا بشرط أن لا تلغى المبادئ الإسلامية الأولى، لأن الأمر المتعلق بمشكلات العالم الإسلامي ليس هو صراع مبادئ، وإنما هو علاقة هذه المبادئ بالواقع النفسي والاجتماعي، أي بالجانب العملي والسلوكي، ولذلك فقد توجد هناك بعض المبادئ الاجتهادية التي تفرضها متغيرات الزمان والتاريخ يمكنها أن تساند المبادئ الأصلية في بلوغ غاياتها ومهامها التغييرية، وهذا الأمر يدخل في باب الاجتهاد والفقه الحضاري في الإسلام ولاشك أن المفكر زكي نجيب محمود يقصد الأمر نفسه حينما قال "لا تحول إلا إذا بدأنه من الجذور، من المبادئ نقتلعها لنضع مكانها مبادئ أخرى فنستبدل مثلا عليا جديدة بمثل كانت عليا في أوانها ولم تعد كذلك، ولا ضير علينا في شيء من هذا فأسلافنا قد صنعوا الصنيع نفسه استبدلوا مبادئ بمبادئ، وأفكارا بأفكار ومثلا بمثل" (زكي نجيب، 1987، ص204)، لأن المتغيرات الحضارية تفرض على الإنسان تغيير بعض القيم والمبادئ التي كان يراها صالحة في زمن ما ليستبدل بها قيما ومبادئ أخرى تلاءم متطلبات الحاضر، أما استبدال مبادئ بمبادئ إنما يقصد بها تلك المبادئ التي يجتهد فيها الإنسان ويضعها وضعا لكي يُسيرَ من خلالها أمور الحياة النفسية والاجتماعية، ولكن هناك مبادئ لا تتغير بل تبقى ثابتة، وهذه المبادئ لا يمكنها أن تكون إلا مبادئ دينية سماوية، مثل مبادئ الدين الإسلامي التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية.

لكن لا ينبغي أن يُفهَمَ من هذا أن كل تغيير أو انفتاح على الحاضر يفقد الإنسان أصالته وقيمه التراثية، لأن "الأصالة ليست مجرد التمسك بكل ما أنتجه الماضي دون تمييز، وإنما هي

تجديد وتغيير وإبداع، كما لا ينبغي أن نخلط بين الشريعة في أصولها وبين الفكر الفقهي والفكر الديني الاجتهادي عامة الذي يتغير بتغير العصور، بل بتغير الأفراد وأرائهم ومناهجهم" (طالبي عمار، 2005، ص383)، ولذلك فإن دعاة الأصلة التامة والتمسك بحرفية النص الديني الإسلامي دون مراعاة لطبيعة المتغيرات الحضارية في العالم، أو دون الاجتهاد في تكييف النص مع مجريات الواقع، إنما هم يضيقون بذلك أفق النص الديني الإسلامي ذاته في فهم مجريات الحياة الإنسانية ومتغيراتها التاريخية.

ويمكننا أن نستعين هنا بفكر محمد أركون الذي أصاب عندما بين أن "هناك فرقا بين الإسلام الكلاسيكي والإسلام المعاصر، فالإسلام الكلاسيكي قد شكل دائما فع،ة تفسيرية وفقهية، ولكن نلاحظ الآن حصول تغير في ما يخص الإسلام المعاصر، فهذا الإسلام لم يعد يهتم بتطوير هذه الفعالية الفكرية والتفسيرية كما كان يفعل الإسلام الكلاسيكي" (محمد أركون، 2000، ص173- 174)، ويفهم من هذا أن محمد أركون لا يرفض الإسلام الكلاسيكي. ولكنه يرفض الفهم المغلق عنه، أو الفهم الذي اقتصر على حرفية النص دون مراعاة المتغيرات البشرية المعاصرة، لأنه من منظوره توجد هناك متغيرات معاصرة كثيرة يجب أن نكيفها مع الإسلام وأن لا نلغيها بحجة أنها لم تُتَضَمَن في النص بشكل مباشر وصريح، إن للإسلام علاقة مباشرة بالتاريخ وبالمتغيرات الاجتماعية للإنسان، ومن ثم فإن الحكم الذي يجعل من الإسلام قيمة مطلقة متع،ة عن التاريخ وعن المتغيرات الاجتماعية إنما هو حكم يسجن الإسلام في خصوصية أبدية ويجعل منه قيما ومبادئ محدودة وضيقة لا تنسجم مع المتغيرات الإنسانية في حين أن مبادئ الإسلام متطورة ومتجددة على حسب متغيرات الحياة البشرية.

لكن السؤال الذي يطرح هنا هو كيف نبدأ في عملية تغيير حضاري للعالم الإسلامي المعاصر من خلال توظيف قيم ومبادئ الإسلام؟ يجيب مالك بن نبي بسؤال مماثل قائلا "كيف بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لقد بدأ بفكرة صحيحة عاشها وطبقها وضحى من أجلها حتى الموت، أو كما قال لعمه لما عرضت عليه قريش عروضها المغرية، "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شم، لما تركت هذا الأمر حتى أبلغه أو أهلك دونه" (مالك بن نبي، 2006،

ص63)، ويفهم من هذا بأن بداية الانطلاق نحو الحضارة في التاريخ إنما يكون من خلال الفكرة الفعالة/ المبدأ التي لها انعكاس ظاهر في الواقع الحضاري، وقد حدد مالك بن نبي بداية الدخول في التاريخ من خلال تغيير ما بنفس الإنسان لكي يرتقى إلى تغيير أوضاع حضارية بأكملها، "وإنها لشريعة السماء الخالدة غير ما في نفسك تغير التاريخ" (Malek Bennabi, p83 ,1990)، ولأن "تغيير ما بالأنفس هو منطق حركة التاريخ ومنطلقها والمبدأ الأساس في التغيير الحضاري المنسجم مع سسن الله في الاستخلاف" (الطيب برغوث، 2004، ص3).

رُبَّ مبدأ يجده مالك بن نبي في تغيير إنسان ما بعد الموحدين بوصفه أساسا لإحداث التغيير الاجتماعي/ الحضاري، ولكن ليس عن طريق تعليم الإنسان المسلم عقيدته التي يعرفها ويعلمها -وجود الله-، بل يجب أن نشعره بحضور لله في كل سلوكاته ونشاطاته عن طريق الثقافة التغييرية المربية لضميره والتي تعيد،ه فع،ته الروحية وتشحذ فيه السلوك المثمر الذي يبث الفعالية النفسية والاجتماعية.

من هنا يقارب مالك بن نبي،ة الدورة الحضارية كما مرت في إطار الحضارة الإسلامية انطلاقا من النص القرآني أساسا، والذي حدد من خلاله مالك بن نبي شروطا ثلاثة للإقلاع هي "إمكانية تطبيق المبدأ القرآني عند نقطة الإقلاع ومطابقة التاريخ منطلقا للمبدأ القرآني، وهو تغيير النفس في تمحورها حول هدف عيني يمنح حركتها توترا يتصل برصيد الواجب في معناه الاجتماعي" (مالك بن نبي، 1969، ص100)، والشرط الثالث هو العدة الدائمة التراب+ الوقت . لأن "كل حضارة تتطلب رأسمال أولي مكون من الإنسان والتراب والوقت، بتركيب من العامل الأخلاقي، ومن غير هذا العامل يوشك أن تتمخض هذه العملية عن كومة لا شكل لها" (مالك بن نبي، 2006، ص141).

ويفهم الآن أن المعادلة الحضارية كما صاغها مالك بن نبي هي الطريق الملكي إلى الحضارة في العالم الإسلام المعاصر، ليس هو بطريق الحضارة الغربية التي رمت بالإنسانية في التهلكة والمخاطر التي لا مخرج منها، وإنما هو في التمهيد لرسالة الإسلام في العالم والسعي إلى تغيير أوضاعه في مسيرة الثلث الأخير من القرن، ومن أجل ذلك يتساءل مالك بن نبي قائلا "فما

رسالة المسلم أمام حالة تتطلب الإنقاذ؟ يجب عليه إنقاذ نفسه وإنقاذ الآخرين" (مالك بن نبي، 2006، ص180)، إن هذا التحديد يوجب على الإنسان المسلم المعاصر أن يواجه المشكلات الحضارية من حوله من خلال القيام بدوره الحضاري على أكمل وجه وهو التزامه بقيم ومبادئ الإسلام من خلال تمثله لها، لأنه بذلك سيساهم لا محالة في إنقاذ نفسه من المخاطر الحضارية التي تواجهه كما يجب عليه كذلك أن ينقذ البشرية من حوله وأن لا يساهم في شقائها أو يدعها عرضة للظلال لأن المبادئ الإسلامية توجب عليه أن يكون شاهدا على الناس من خلال تبليغه لقيم ومبادئ الإسلام لأكبر عدد ممكن من بني البشرية، بيد أن ركون الإنسان المسلم إلى الفشل والتشاؤم و وقوفه على أطلال الماضي الحضاري دون حراك وفع،ة في الحاضر سيعطل جهوده ويجعلها إنكفائية وسطحية، ولأن الحضارة الغربية لا يمكن أن تقدم له ما يمكن أن يسعفه في بناء واقعه الحضاري والنهوض به على أكمل وجه، وبالت، فلا بديل عن الإسلام.

يقول مالك بن نبي "إذا أراد المسلم أن يسد هذا الفراغ في النفوس المتعطشة، النفوس المنتظرة للمبررات الجديدة فيجب أولا أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود إلى ربانية الوجود" (مالك بن نبي، 2006: ص173)، إن الإنسان المسلم يحتاج إلى إرادة حضارية ع،ة تنشد المستحيل ولا تكتفي بالممكن المتاح فقط لأن انكفاء النفس الإنسانية على المتاح والرضا والقبول بما هو جاهز ناجز، إنما هو تعطيل لمنطق الحركة والفعالية التي خلقها الله فيها، ولهذا السبب فقد تركزت سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الإقلاع الحضاري للعالم الإسلامي على بناء مبادئ التغيير من خلال تحقيق الانسلاخ الفكري والسلوكي عن المرحلة السابقة والارتباط بشكل صميمي بقيم المرحلة الجديدة من خلال بناء المرتكزات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لها، لأن "المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه العقيدة يكمن في الإصرار على التغيير والمبادرة والضرب في الأرض باستغلال القدرات العقلية والذاتية التي أسسها الإنسان بما مكنه الله على هذه الأرض" (ضيف الله، 2005، ص58).

ومن التحليلات الصائبة هنا ما يراه الباحث أبو يعرب المرزوقي في أن "المبدأ الذي يحكم القيم الحضارية ويشحذ همم التغيير التي أنتجتها الحضارة الإسلامية، هو ختم الأنبياء وإلغاء سلطان الأوصياء" (رضوان جودة، 2005، ص118-119) ويظهر هذا جليا من خلال انتهاء عهد الوصاية في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، إذ لا يحق لأحد بعده أن يدعي الوصاية الإلهية على المسلمين وأن يتخذها سلطانا في يده يوجه به الآخرين الوجهة التغييرية التي شاء، لأن هذا الأمر يكبل فع،ة المسلمين ويجعلهم في حالة ركود وسكون مما يفقدهم الثقة في أنفسهم ويكسر فيها عزائم التغيير ويدعها عرضة للإتك،ة والمتتبع لمسار الفكر الإسلامي المعاصر يجد بأن هناك الكثير من المشاريع والأفكار التي نصبت نفسها وصية على الأمة الإسلامية ورأت أن الحل يكمن في تبني إيديولوجية معينة دون غيرها.

ولكن لو اهتدينا بالوجهة التحليلية لفكر مالك بن نبي في هذا الصدد لمواجهة المزالق التي وقع فيها بعض الدعاة إلى التغيير الحضاري بعده، لتبين لنا بأن الخلل يكمن ولا شك في المناهج التغييرية التي اتبعوها، حيث نجد على سبيل المثال الباحث رضوان جودت زيادة يطرح مشروعا يدعو إلى التجديد من خلال مؤلفه الموسوم بـ"سؤال التجديد في الخطاب الإسلامي المعاصر" والذي يتبنى فيه نظرية التجديد لا باعتبارها إنتاجا فكريا في حقل العلوم الإسلامية وإنما كـ"نظرية اجتماعية وسياسية واقتصادية يجب البحث عن معالمها والعمل على صياغتها وبلورتها حتى نتمكن إلى الدخول في ما يسميه "عصر التجديد" (رضوان جودة، 2005، ص53). ومن جهة أخرى نجد المفكر محمد عابد الجابري يشرط عملية التغيير الحضاري في العالم العربي والإسلامي من خلال انتهاجه مشروعا نقديا متكاملا يهدف إلى "نقد الواقع من جميع جوانبه، نقد المجتمع ونقد الاقتصاد ونقد العقل" (عابد الجابري، 2005، ص185).

لكن المشكل الذي وقعت فيه هذه المشاريع الفكرية على الرغم من محاولتها الاجتهادية هي أنها ضلت ترى بأن الحل الحضاري المناسب للعالم العربي والإسلامي يتوقف على مدى ما يمكن اقتراحه من حلول مباشرة وآنية سريعة تكمن إما في التجديد، أو التغيير، أو التعمير، أو تبني مشروع نقدي وكأنَّ الأمر يتعلق بتسمية لفظية متى حافظنا عليها تم ضمان نجاح

المشروع الفكري في المجال الحضاري، بيد أن الاختلاف المفاهيمي النظري بين مشروع إصلاحي وأخر نهضوي وأخر تعميري وأخر تجديدي، وآخر نقدي، أمر لا ينفع في إخراج العالم العربي والإسلامي من كبوته الحضارية، لأن الحل الخاص بالمشكلة الحضارية في العالم العربي والإسلامي المعاصر كما يرى الباحث فهمي جدعان إنما "يكمن في الفعل، أي في الجانب العملي والسلوكي للشخصية الاجتماعية الأخلاقية والسياسية التي لا تقوم بوظائفها خير قيام والتي أصابها العطب جراء تعلقها بالذات وكراهية الآخرين وعدم نُشدان الخير العام وغياب النزاهة والموضوعية" (أحمد الشريف، 2002، ص81).

لعل من بين أكبر مظاهر العطب والخلل النفسي والفكري التي أصابت بعض مفكري العالم العربي والإسلامي هو تداعيهم إلى مواقف عدمية تسعى إلى نفي بعض الحقائق التراثية في الإسلام اعتقادا منهم بأن أمر النهوض الحضاري لا يتوقف على الدين الإسلامي، إذ على خلاف الوجهة النظرية لفكر مالك بن نبي نجد أن مفكرا مثل الدكتور أحمد البغدادي ينفي كل تأصيل للبعد الحضاري في التراث الإسلامي، حيث يرى أن لا علاقة للدين الإسلامي في عهده الأول -عهد النبي صلى الله عليه وسلم- بالحضارة، وهذا بحجة احتياج المسلمين إلى ما في الحضارات الأخرى ك،ونانية والفارسية والهندية لكي يقيموا حضارتهم، إذ حسبه لو كان في دينهم أسس حضارة لما احتاجوا إلى أربعة قرون لإقامتها، وفي هذا يقول "لو كان يوجد في الدين الإلهي –أي دين- بذور حضارة لاستطاع المسلمون،وم بناء حضارة دينية مستمدة من دينهم لذلك من أولويات الحقائق أن لا علاقة بين الدين والحضارة والنهضة والتقدم يستطيع الإنسان بعقله أن يعيش بلا دين وأن يقيم حضارات عظيمة وأن يتقدم وينهض وأن يرتقي في سلم المدنية دون حاجة للاعتماد على دين" (نواف القديمي، 2008، ص141- 142)، يفهم هنا أن المشروع الفكري الحضاري في العالم الإسلامي المعاصر لا يمكنه أن يغير شيئا مادام أنه يقدم اجتهادات في نفي المبادئ والقيم التراثية ويقدم مواقف تبلغ في بعض الأحيان شأوا عظيما من الاختلاف لا يغني ولا يسمن من جوع في تغيير الواقع، فما قيمة النصوص الفكرية التي تروم التنظير دون التطبيق.

ولئن كان حال المشروع الفكري الحضاري في العالم الإسلامي يتداعى إلى هذا النوع من السلبية إلا أن ما هو أدهى وأمر من ذلك هو ما انتهت،ه بعض تيارات الفكر الديني من الخلاف والاختلاف حول قضايا العبادة والتدين، والشاهد على ذلك هو تلك المظاهر التدينية التي فجرت مستقر الحقيقة الإسلامية، إذ تجد بعض متعالي الدين من يرى أن الدين يكمن في الانصراف عن الواقع الاجتماعي بحجة أن التدين قضية شخصية وعبادة انعز،ة، والبعض من يثبت قيم التراث الديني التي تعامل بها الأسلاف كقيم مطلقة صالحة لكل زمان حضاري والبعض الأخر من يرى بأن أي انفتاح على قيم العصر يلغي قداسة الدين، ولعل المشكل ناشئ هنا عن أحكام بالكلية والمطلقية تنم عن سوئ تقدير لمقتضيات الفكرة الدينية الإسلامية التي تحولت بفعل الاستخدام السيئ لها إلى اكليروس ديني، ذلك أن لا فائدة من ترديد مبادئ الفكرة الدينية الإسلامية في شكل خطاب سياسي أو اجتماعي دون العمل على تجسيد هذه المبادئ في الواقع الحضاري، فقيمة الفكرة الإسلامية لا تعرف إلا إذا تم تمثلها كواقع عملي سلوكي يحكم علاقة الناس بخالقهم وعلاقتهم مع بعضهم البعض ولئن كان هناك عدم فع،ة ظاهرة في العالم الإسلامي فإن الخلل لا يعود إلى المبادئ الإسلامية، وإنما هو كامن في تمثلنا السيئ لهذه المبادئ على المستوى النفسي والاجتماعي وبالت، فإن "الإسلام ليس هو الذي افتقد قوته بل المسلمون هم الذين حرفوا فكرة الإسلام، فاستحقوا العقاب حين افتقدوا شيئا فشيئا الطاقة التي وصلت،هم من الجيل الإسلامي الأول" (OmarBenaissa,2008 ,p40).

إن العالم الإسلامي هو المسئول عن تردي أوضاعه الحضارية إلى ما هي عليه الآن من الضعف والوهن وعدم الفعالية، ولا شك أن المشكل الأصيل لا يكمن في وجود هذه المظاهر وإنما هو بالضبط في استمرار العالم الإسلامي على هذه الحالة من دون انطلاقة حاسمة في التاريخ، يقول مالك بن نبي "المشكل لا يكمن في وجود اللافع،ة، وإنما هو في تلك الترهات التي تعمل على استبقائها مثل ترهة الفقر وترهة الجهل" (مالك بن نبي، 2009، ص62)، لأن أي مجتمع ما في لحظة من لحظات دوراته التاريخية إلا ويشهد نوعا من الإرتكاس والتردي، ولقد كان هذا هو حال أعظم الحضارات في التاريخ، ولكن المشكل الذي ارتبط بالعالم الإسلامي منذ

سقوط حضارته، ومنذ عصر ما بعد الموحدين هو استمراره والى غاية الراهن التاريخي على الحال نفسه نتيجة استبقائه على الأزمات التي أحاطت به من كل حدب وصوب من دون العمل على تغييرها، إذ عوض أن تكون الأوضاع المتأزمة دافعا للبحث عن مناهج تغييرية ملائمة كانت السبب في تبرير العجز، وبذلك أصبح وجود الأزمة مبررا للعجز، والعجز ناتج عن التفاقم المتزايد للأزمة، وهكذا.

ولهذا كانت التغييرات المنتهجة في العالم الإسلامي مجرد مظاهر شكلية تفتقد إلى بعد الفعالية، لأن أمر التغيير الحضاري بالنسبة،ها كان مجرد انتهاج لأمور عفوية، أو أنه كان يحصل بفعل المصادفة، في حين أن التغيير الحضاري يتطلب بداء الإرادة الواعية القاصدة والهادفة، لأن التغيير الحضاري الفعال يبدأ من عالم الذات، أي من الأنفس، وليس من عالم الأشياء والموضوعات، لأن "الحضارة ليست كومة من الأشياء والأفكار، ولكنها بناء يعكس عبقرية البلد وشخصيته" (مالك بن نبي، 2008، ص58)، ولكن لما لم يستطع العالم الإسلامي المعاصر تمثل هذه الحقيقة راح يبحث عن الأسباب الواهية من أجل الدفاع عن عجزه وتبرير ما هو فيه من أزمات، ولقد مثلت التجربة الاستعمارية الحديثة فرصة تاريخية سانحة لترسيخ مثل هذه القناعات، عوض أن يعمل العالم الإسلامي على تجاوز الإحباط النفسي الذي تسبب فيه الاستعمار، راح يتحجج به كسبب مباشر لتبرير ما هو عليه من عجز ووهن وركود حضاري لأن القابلية للاستعمار شكلت دافعا لبقاء الاستعمار واستمراره في بلدان العالم الإسلامي بطرق وأس،ب جديد، فالاستعمار بقي حاضرا ولو على مستوى الإحباط النفسي والإحساس أنه لا جدوى من التغيير، وهذا ما يؤدي إلى تناه الذات وانطوائها على ذاتها من الداخل محاولة البحث عن المبرر النفسي للضعف التي هي عليه من دون انطلاقة حاسمة في التاريخ.

ويتبين لنا من خلال الوجهة التحليلية لفكر مالك بن نبي أن التحرر من القابلية للاستعمار يعد أحد أهم العوامل الدافعة إلى توجيه نفسية الفرد وحالة المجتمع إلى واجهة الحضارة فـ"وقوع الاستعمار وانتهاء عهده قد يكون محركا ودافعا للإنسان القابل للاستعمار حتى يتغير ويضطر أن يتحرر من صفات أبناء المستعمرات المتمثلة في الانحطاط والسلبية ولكن الغريب

هو أننا نضل لا على تلك الحالة الذهنية والنفسية رغم أننا تخلصنا من الاستعمار ولا نعمل على تغيير أنفسنا فيغير الله ما بنا" (صالح الحاجة، 1985، ص120)، ويفهم من هذا أن العالم الإسلامي المعاصر لم يتغير بطريقة جذرية وكأنه لا يزال تحت رحمة الاستعمار العسكري والسياسي، لأن القابلية للاستعمار لا زالت تتحكم في الكثير من نفوس أبنائه، فنحن لزلنا نتغنى بعبارة قهرنا الاستعمار ودمرناه، ولقد كان آباؤنا وأجدادنا رجالا حقا ونحن أصحاب مجد وتاريخ وحضارة قهرنا بها الاستعمار وغيره، يقول عبد الله شريط "إن المعركة المسلحة والانتصار فيها شيء، والمعركة الحضارية والفوز فيها شيء أخر ويظهر أننا لم نستفد بعد أي درس في هذا الموضوع الخطير" (عبد الله شريط، 1981، ص136)، إذ مادام أن الإنسان المسلم المعاصر لم يعمل على تغيير ما بنفسه من وهن وجمود فإنه حتما سيبقى عرضة للمخططات الإيديولوجية الغربية التي تسعى إلى التحكم في أفكاره وأذواقه، إن الاستقلال الحقيقي يكمن في عالم الفكر والثقافة، وليس فقط في الجانب العسكري والسياسي.

ويفهم الآن أن ما أثاره مالك بن نبي في حديثه عن القابلية للاستعمار يعد بحق أحد التشخيصات الصائبة لحالة الوهن والركود الحضاري الذي اعترى العالم الإسلامي منذ عصر ما بعد الموحدين، ولكن القارئ لتحليلات مالك بن نبي والمتتبع لها عبر مؤلفاته المختلفة يشعر أنَّ ثمة نوعا من التركيز المفرط على فكرة القابلية للاستعمار إلى الحد الذي يشعر فيه القارئ العربي والمسلم بعدم جدوى السعي إلى التغيير، لأنه سَيَعلَمُ مُسَبَقًا من تحليلات مالك بن نبي أن الأمر يطول في سبيل التخلص من أمراض القابلية للاستعمار من أجل تحقيق متطلبات التغيير الحضاري المطلوب، وقد ينشأ هنا اعتراض مفاده أن مالك بن نبي كان يشخص حالة تاريخية عاصرها بدمه وبروحه وشاهدها في نفوس أبناء جلدته من قابلية للانهزام بدسائس الاستعمار في النفوس، ولكن إلى متى ونحن نتكلم عن القابلية للاستعمار بعد مالك بن نبي؟،س الحريّ بنا أن لا نبقى على مستوى هذا الخطاب من الانهزامية والروح التشاؤمية؟ ونتكلم وبجدية عن خطاب يطور الجانب المتفائل من فكر مالك بن نبي خطابا عن القابلية للتغيير؟

إنَّ الهدف من التساؤل على هذه الشاكلة ليس هو إلغاء معطي تاريخي مشهود في الحياة النفسية والاجتماعية التي تداعت إلى نوع من الاستكانة والقابلية للاستعمار، وإنما هو التنبيه على مدى خطورة ظاهرة القابلية للاستعمار التي يجب على العالم الإسلامي تقويضها نهائيا من خلال تحديد الجوانب اللاّزمة التي من شأنها أن تغير هذه القابلية من قابلية انهزامية ومنفعلة ومتأثرة إلى إرادة مغيرة وفاعلة ومؤثرة، ولكن يا ترى ما السبيل إلى ذلك؟ أي كيف يمكن للإنسان العربي والمسلم في هذا العصر الذي طغت فيه وتعددت الأس،ب الاستعمارية من المجال العسكري إلى السياسي إلى العلمي والإعلامي وغيرها أن يواجه هذه التحديات ويخلص نفسه من التلقي والاستقبال والقبول اللاّمشروط لها، وبالت، أن يغير ما بنفسه حتى يغير الله ما به؟

لاشك أن الأمر يتطلب إتباع منهج تربوي ذا طابع نفسي واجتماعي فعال قد يلزم تأسيس مبادئه منذ المراحل الأولى للتربية والتعليم، وهذا بالطبع ما تتطلبه جهود متخصصة في مجالات التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع، ولكن أنَّ العالم العربي والإسلامي،وم من هذه المجهودات؟

خاتمة

يبدو أن التحامل على فكر مالك بن نبي، إنما هو تحامل في غير موضعه وتغلب عليه الردود العاطفية والانفع،ة لا غير، ولنا الأمثلة الكثيرة التي تبين أن ما كُتبَ عن فكر مالك بن نبي من انتقادات لم يرق إلى مستوى التجاوز الموضوعي، ولا أدل على ذلك في نظرنا من أن الفكر الإسلامي المعاصر لم يرق بعد إلى إنتاج مشروع فكري حضاري بتلك الجدية في التحليل والموضوعية في الطرح التي قدمها مالك بن نبي في معالجة المشكلة الحضارية عامة والمشكلة الحضارية في العالم الإسلامي خاصة.

لكن المشروع الحضاري عند مالك بن نبي قد استنفد كل إمكاناته في محاولة التشخيص والوصف والتحليل دون الوصول إلى مخارج حاسمة من تلك المشكلات الحضارية التي كان يواجهها الواقع الإسلامي آنذاك، لأن ميل مشروعه الحضاري إلى تغليب الحلول الماضّوية التي ثبتتها الحضارة الإسلامية في عهد بدءها الأول جعلته ينظر إلى الوضع الحضاري في العالم

الإسلامي بمنظار الماضي الحضاري، مؤكدا على أن التجديد والتغيير الحضاري يبدأ لابد من ماضي الحضارة الإسلامية، أي من المبدأ السماوي والفكرة الدينية تحديدا، بيد أن المشكل لا يكمن في تأكيد مالك بن نبي عن الأصل الديني للحضارة أو عن مبدئها الديني، وإنما هو أساسا في أن العالم الإسلامي لم يصل والى غاية الراهن التاريخي إلى بناء مشروع تغيير حضاري يحدد وجهته المستقبلية وفق منطق الفكرة الدينية الإسلامية.

كما أن تركيز مالك بن نبي على الفكرة الدينية كمبدأ للحضارة الإنسانية جعل تحليلاته تنظر إلى الحضارة من وجهة نظر تاريخها أكثر من الوعي بالمآلات التي يمكن أن تصل،ها ولذلك يمكن القول أن فلسفة مالك بن نبي في الحضارة قد أفلحت في تحليل مشكلات الحضارة وخاصة بالنسبة للعالم الإسلامي من وجهة نظر ما كان وما هو كائن، ولكن تنبؤاتها بما ستئول،ه المتغيرات الحضارية مستقبلا سواء بالنسبة للحضارة الغربية أو الحضارة الإسلامية لم تكن في مستوى الواقع الحضاري الذي نعيشه،وم، إذ لو نظرنا إلى المتغيرات الحضارية التي يشهدها العالم،وم –أي بعد وفاة مالك بن نبي- فإننا نجدها تؤول إلى التشاؤم أكثر من التفاؤل الذي بشرنا به مالك بن نبي، لأن هناك أحداث تاريخية مستجدة كانت بعكس توقعاته وعلى سبيل المثال نجد أن محور طنجا- جاكرتا لم يستطع النهوض بالشكل الحضاري الملائم الذي يجعل منه حضارة مستقلة، كما أن محور موسكو – واشنطن على الرغم من انهياره زاد قوة في الإرادة والإمكان الحضاري معا إلى جانب القوة التي كان يملكها آنذاك.

ولكن على الرغم من الملاحظات والانتقادات التي يمكن توجيهها لفكر مالك بن نبي ولمشروعه الحضاري، إلا أنّ هذا الفكر في نظرنا ليس أطروحة نهائية خاصة بظرف تاريخي خاص كما يرى البعض، وإنما هو فكر متجدد باستمرار يمكن على أساس منه فتح دروب جديدة في مضمار الفكر والحضارة، ذلك أن القضية التي اهتم بها، إنما هي قضية إنسانية وعالمية لا يمكن أن تغتزل في موضوع واحد من بين تلك الموضوعات الخاصة التي نجدها في بعض مؤلفاته من مثل القضية الاستعمارية والصراع الإيديولوجي وغيرها، إن مالك بن نبي في نظرنا مفكر حضاري من طراز عالمي، لأن طرحه للكثير من القضايا والمشكلات المتعلقة بمصير

الحضارة المعاصرة، إنما يبين رجاحة وعمق فكره الحضاري، فعلى الرغم من تلك الملاحظات التي يمكن أن تحسب ضده في ما يخص تنبؤاته عن ما ستؤول،ه المتغيرات الحضارية، إلا أنّ الأمر المهم في نظرنا هو قيمة وأهمية الموضوعات التي عالجها ومنطق التحليل الذي فرضه على الكثير من القضايا والمشكلات التي تبدو أنه لا حدود وسطى تجمعها.

قائمة المصادر والمراجع:

عابد الجابري، محمد (2005)، إشك،ات الفكر العربي المعاصر، ط5، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

أبو القاسم، حاج حمد (2004)، الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، ط1، دار الهادي، بيروت لبنان.

أركون، محمد (2005)، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ط2، دار الطليعة، بيروت لبنان.

برغوث، الطيب (2004)، محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ط2، دار قرطبة للنشر والتوزيع.

بن نبي، مالك (1969)، شروط النهضة، ط3، دار الفكر، دمشق.

بن نبي، مالك (2006)، الفكرة الإفريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، ط4، دار الفكر، دمشق.

بن نبي، مالك (2006)، مجالس دمشق، ط2، دار الفكر دمشق، سوريا.

بن نبي، مالك (2008)، من أجل التغيير، ط6، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان.

بن نبي، مالك (2009)، فكرة كومينويلث إسلامي، ط9، دار الفكر، دمشق سوريا.

بوعرفة، عبد القادر (2006)، الحضارة ومكر التاريخ تأملات في فكر مالك بن نبي، ط1، دار رياض العلوم الجزائر.

جودة زيادة، رضوان (2005)، سؤال التجديد في الخطاب الإسلامي المعاصر، ط1، دار المدار الإسلامي، بن غازي ليبيا.

الحاجة، صالح (1985)، أي حضارة نريد، دار سرار للنشر، تونس.

خالد السعد، نورة (1998)، التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، دراسة في بناء النظرية الاجتماعية، ط1 الدار السعودية للنشر والتوزيع.

شريط، عبد الله (1981)، معركة المفاهيم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
الشريف، أحمد (2002)، جدل النهضة والتغيير، حوارات في الفكر العربي المعاصر، ط1، وزارة الثقافة.
ضيف الله، بشير (2005)، "فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي"، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر.
طالبي، عمار (2005)، دراسات في الفلسفة وفي الفكر الإسلامي، ط1، دار المغرب الإسلامي، بيروت لبنان.
عبادة، عبد اللطيف (2006)، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ط1، عالم الأفكار للنشر والتوزيع، الجزائر.
عزي، عبد الرحمن (2010)، الإعلام في فكر مالك بن نبي مقاربة استقرائية، مجلة الحكمة للدارسات الفلسفية العميقة، العدد الثالث، تصدر عن مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر.
عمارة، محمد (1995)، أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، ط1، دار الشرق الأوسط للنشر.
القديمي، نواف (2008)، الإسلاميون سجال الهوية والنهضة مقاربات في الفكر والممارسة، ط1، المركز الثقافي العربي.
المدرس، عزيز (2005)، الرؤية الآن دراسة تحليلية لعملية التغيير الحضاري وللواقع السياسي المعاصر، دار الكتاب الثقافي، الأردن.
مسقاوي، عمر كامل (2003)، المصطلحات الرئيسية في فكر مالك بن نبي، مجلة مطارحات، العدد20.
نجيب، محمود زكي (1987)، تجديد الفكر العربي، ط8، دار الشروق.
Bennabi, Malek (1990), Le problème des idées dans le monde musulman, Editions al bay- yinate, Alger.
Benaissa Omar (2008), Malek Bennabi, Dans L'histoire de L'intellect islamique Dans le future de la societè islamique, presèntation , Omar kamel Meskawi, Dar Al-Fikr, Damas, syrie.